آيات صفات اللّه تعالى بين
إشكالية التفسير والتأويل

أ. أحمد سحوان
أستاذ مؤقت
كلية العلوم الإسلامية



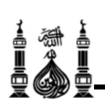
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آل بيته الطيبين، وعترته الطاهرين، وصحابته الغرّ الميامين، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليما، وبعد:

فهذا مقال في علم التفسير سمّيته:

[**آيات صفات الله تعالى بين إشكالية التفسير والتأويل**] يعالج مسألة "صفات المولى عزّ وجل" [تفسيرا وتأويلا]؛ باعتبارها من أبرز وأهم المسائل الشائكة التي حامت حولها شبهات كثيرة في الفكر والعقيدة، – قديما وحديثا–، وأحدثت غزارة معتبرة في المادة، ودسامة لا تكاد توجد في غيرها من الموضوعات والمسائل؛ إذ لا يزال إلى اليوم النقاش فيها محتدما بين طوائف الملة الواحدة.

وفي حدود علمي لم أجد من المسائل العلمية، مسألة حيرت العلماء زمنا طويلا، وشحذت همم الباحثين، وسيّلت أقلام الكاتبين حبرا كثيرا، كمسرألة التأويل في النص القرآني.

من أجل ذلك؛ يأتي هذا الموضوع كمحاولة لتسليط الضوء على ما قيل من آراء وتفاسير في آيات صفات الله عزّ وجلّ، مناقشة وتحليلا ومقارنة بين آراء وأقوال علماء



السلف والخلف في المسألة، مبرزا فيه حجج كل فريق، والأدلة التي اعتمد عليها في اعتناق مذهبه، والدفاع عنه، والدعوة إليه.

والإشكالية بين التفسير والتأويل كانت ولا تزال دينية بحتة؛ ارتبطت بتنوع الثقافات الإسلامية، منذ زمن ليس باليسير، ولغوية؛ استندت إلى المعاني اللغوية لمدلولات كلمتي:

[**التفسير**]و[**التأويل**]، ومن ذلك؛ فإنّ العلاقة بين المصطلحين هي التي ستتشكل من خلالها المواقف المتباينة بين ((السلف)) و((الخلف)) من إمكانية التأويل من رفضه، إذ لا زالت الحاجة ملحة من أيّ وقت مضى إلى التأويل، وما نراه من صراعات فكرية، وصدامات – أحيانا– أخلاقية مرده إلى التأويل، خاصة في فهم النصوص على اختلاف أنواعها ودلالتها.

وتهدف دراسة مباحث هذا الموضوع وقضاياه إلى:

بيان الدور الكبير لكل من التفسير والتأويل في شرح النص القرآني، و فهم دلالته، وتوضيح معناه شرح النص القرآني، و فهم دلالته، وتوضيح معناه والوقوف على المعاني الخفية للمتشابه في القرآن الكريم، رغم اختلاف التفسير عن التأويل من حيث الدلالة والمفهوم بيان العلاقة بين التفسير والتأويل في خدمة النص القرآني.

تمهيد:

ولما كان القرآن الكريم حمّال أوجه، ومعانيه لا تحدها حدود، كما جاءت في ذلك النصوص الصريحة الصحيحة، ومنها ما أورده الزركشي في البرهان عن سهل بن عبد الله حين قال: ((لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يُفهم بمقدار ما يفتح الله عليه، وكلام الله غير مخلوق، ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة))[1]. بل وأكثر من ذلك جميع اجتهاد علماء الأمة من سلفها وخلفها إنما

هو ترجمة للقرآن، قال الشافعي: ((جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن، وجميع القرآن شرح لأسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، - زاد غيره: وجميع الأسماء الحسنى شرح لأسمه الأعظم)) [2] .

لذلك تعددت اتجاهات التفسير، ومناهج المفسرين في القران الكريم، من التفسير بالمأثور إلى التفسير بالرأي، وبالرأي إلى رأي محمود ومذموم، إلى التفسير بالرمز والإشارة، إلى غير ذلك من الاتجاهات والمناهج، ولكل من هذه التفاسير أنصار ومعارضون، موافقون ومخالفون، انعكس ذلك بصورة مباشرة على الآيات التي تحمل أكثر من وجه، وتتحمل أكثر من دلالة، وبصورة خاصة آيات صفات المولى عزّ وجل، كالاستواء، والمجيء والقدوم، والإتيان والنزول، والنظر، وغير ذلك مما هو محلّ إشكال. فما هو إذن مفهوم التفسير والتأويل، وما العلاقة بينهما في آيات صفات المولى عزّ وجل على وجه الخصوص؟ هل هي تجاذب وتوافق؟ أم هي افتراق وتناسب؟

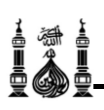
مفهوم التفسير والتأويل والعلاقة بينهما:

مفهوم التفسير لغة واصطلاحا:

التفسير لغة: يذكر أبو الفضل ابن منظور(**ت711هـ**) التفسير فيقول: التفسير من الفسر والبيان، فسّر الشيء يفسره، والفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل، واستفسرته كذا، أي سألته أن يفسره لي[3]

ويذكر الجرجاني(ت740هـ): أن التفسير في اللغة يرجع إلى معاني الإظهار والكشف، وأصله في اللغة من التفسرة، وهي القليل من الماء الذي ينظر فيه الأطباء، فكما أنّ الطبيب بالنظر فيه يكشف عن علة المريض، فكذلك المفسر يكشف عن نشأة الآية، ومعناها والسبب الذي أنزلت فيه[4]

ويذكر الراغب الأصفهاني(ت 502هـ) **التفسير فيقول** : أنّ الفسر هو إظهار المعنى المعقول، والتفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها[5].



واصطلاحا: عرّفه العلماء بتعريفات عديدة، ولكن يقارب بعضها بعضا، أقتصر على اثنين منها، أحدهما لأبي حيان الأندلسي(ت 745هـ) في البحر المحيط، والآخر لبدر الدين الزركشي(ت794هـ) في البرهان في علوم القرآن.

تعريف أبو حيان الأندلسي : التفسير علمٌ يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك(6).

تعريف البدر الزركشي : التفسير علمٌ يفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم العربية، والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ(7).

مفهوم التأويل لغة واصطلاحا:

التأويل في اللغة : مأخوذٌ من الأول، وهو الرجوع إلى الأصل، يقال: آل إليه أولا ومآلا، إذا رجع... ويقال: أوّل الكلام تأويلا وتأوّله، إذا تدبره وقدّره وفسره.

وعلى هذا فتأويل الكلام في " **الاصطلاح**" له معنيان لا يكاد يخرج عنهما:

أحدهما: المرجع، والكلام إنما يرجع ويعود إلى حقيقته التي هي عين المقصود، وهو نوعان: إنشاء وإخبار، ومن الإنشاء: الأمر. **فتأويل الأمر**: هو الفعل المأمور به، من ذلك ما روي عن عائشة(**رضي الله عنها**) أنها قالت: ((كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأوّل القرآن)) (8). تعني قوله تعالى:

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر:3].

وتأويل الأخبار: هو عين المخبر إذا وقع، كما في قوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ [الأعراف:53].

فقد أخبر أنه فصّل الكتاب وأنهم لا ينتظرون إلا تأويله، أي مجيء ما أخبر الله تعالى بوقوعه، من القيامة وأشراطها، وما في الآخرة من الصحف والموازين، والجنة والنار، وغير ذلك، فحينئذ يقولون:﴿ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ ﴾ ؟.

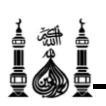
ثانيهما: تأويل الكلام أي تفسيره وبيان معناه، وهو ما يعنيه ابن جرير الطبري(ت310هـ) في تفسيره بقوله: ((القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا...)).، ونحو قوله: ((اختلف أهل التأويل في هذه الآية)). فإنّ مراده التفسير، ذلك هو معنى التأويل عند السلف(9).

إطلاقات التأويل: من خلال جملة هاتيك التعريفات والتي رأيناها تتقارب فيما بينها، وكثيرا ما يصبّ بعضها في بعض، نستطيع القول بأن التأويل يطلق ولا يكاد يخرج عن ثلاثة معان هي:

-صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى المرجوح بقرينة.

-التفسير، وهو الغالب عند القدامى كالطبري، وابن كثير.

-الحقيقة التي يؤول إليها الكلام.



ورود لفظة التأويل في القرآن الكريم وبعض معانيها: ورد لفظ ((**التأويل**)) في القرآن الكريم، في العديد من الآيات القرآنية، مكية ومدنية، وسأحاول الوقوف عليها وتتبعها موضحا المعاني التي تتضمنها، فمن ذلك:

أولا: قوله تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ** ﴾ [آل عمران:7/6].

قال ابن قتيبة(ت 376هـ): تأويله هو الحقيقة التي أخبر عنها، وذلك أنّ الكلام نوعان: إنشاء فيه أمر، وأخبار؛ فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمورية، وأما الأخبار فتأويله عين الأمر المخبر به إذا وقع[(10)].

ثانيها: قوله تَعَالَىٰ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** ﴾ [النساء:59] .

فسّر مجاهد(**ت104هـ**) التأويل ههنا بالجزاء والثواب، والمآل والعاقبة، وسار على مذهبه هذا طائفة من العلماء[(11)].

قال ابن كثير: ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا أي أحسن عاقبة ومآلا، كما قاله السدّي، وغير واحد، وقال مجاهد: وأحسن جزاء، وهو قريب[(12)].

ثالثها: قوله تَعَالَىٰ: ﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ**

رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ [الأعراف:53/52].

فسّر ابن عباس(**رضي الله عنهما**) التأويل ههنا بتصديق وعده ووعيده. قال ابن كثير: **هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ** ؟ أي ما وعدوا به من العذاب، والنكال والجنة والنار قاله مجاهد وغير واحد، وقال مالك: ثوابه، وقال الربيع لا يزال يجيء من تأويله أمرٌ حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، فيتم تأويله يومئذ، وقوله: **يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ** أي يوم القيامة، قاله ابن عباس)) (13).

رابعها: قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [يوسف:06]. قال مجاهد وغيره: تعبير الرؤيا، ومثله قوله تعالى في عين السورة: ﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾[يوسف:36]. **قال ابن كثير:** **إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ** يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه، ولهذا **قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ** في يومكما، وكذلك قال السدّي وابن أبي حاتم وغيرهم) (14). ونحو ذلك في مثل قوله تعالى في ذات السورة: ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ؛ فتأويل الأحاديث و الأحلام هو الأمر الوجودي الذي تدلّ عليه، وهو فعل حقا لا قول

فقط، كما في قوله: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ ﴾ [يوسف: 100].

خامسها: في قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴾ [الكهف: 78]. وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴾ [الكهف:82]. فالأنباء بالتأويل إنباء بأمور عملية ستقع في المآل لا بالأقوال، فتبين من هذه الآيات أنّ لفظ التأويل لم يرد في القرآن إلا بمعنى الأمر العملي الذي يقع في المآل تصديقا لخبر أو رؤيا أو لعمل غامض يقصد به شيء في المستقبل، فيجب أن لا تفسر آية آل عمران ((وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ)) إلا بهذا التفسير، الذي يقع فيه المآل تصديقا لخبر أو لرؤيا أو لعمل غامض يقصد به شيء غير الظاهر في المستقبل، ولا يجوز حمل التأويل على ما اصطلح عليه القدامى من أنّ التأويل هو ذاته التفسير ، ولا على ما اصطلح عليه المتأخرون من الأصوليين من جعل التأويل هو صرف اللفظ من الراجح إلى المرجوح بقرينة أو بدليل، والله أعلم.

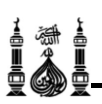
وظني أن تداول كلمة التأويل بهذا القدر الهائل – وربما كانت أكثر من العدد الذي أوردناه– هي التي جعلت مسألة التأويل حقيقية موجودة وغير مستغربة منذ زمن الوحي، وفي أيام التنزيل، وفي شهود المنزل عليه صلوات ربي وسلامه عليه، فقد سألوا رسول الله ﷺ عن الظلم في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام:82] فقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: إنه ليس الذي تعنون، إنه كما قال العبد الصالح، وقرأ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان: 13] (15)

وسؤال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عن معنى كلمة ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس:31]. كل ذلك نستخلص منه أنّ مسألة تفسير القرآن ليست بالسهلة ولا بالهينة، و ليس كل أحد يستطيع أن ينصب نفسه لذلك.

كما نستخلص أيضا أنّ القرآن حمال وجوه من التفسير تدلّ على غزارة معانيه، وكثرة مراميه، فكان لعلماء الإسلام من ذلك فسحة للنظر والتأويل والاجتهاد، وفي ذلك يقول جولد تسيهر: ((وفي كثرة الألوان من احتمالات التفسير، وفي هذا الخصب الفكري المريع، يلمح علماء الدين الإسلاميون – مباشرة- ميزة للكتاب الكريم نفسه، ودليلا على ما يستنبطه من ثروة، وما ينطوي عليه من فيض غزير، فالقران ذو وجوه، ومعنى ذلك انه جم الدلالة، كثير المدارك))(16).

ولكن إذا لم يتساهل الرّعيل الأول(رضي الله عنه) في أمر التأويل، فمن باب أنهم كانوا يرونه يوقع صاحبه في كثير من مزالق التفكير والاعتقاد، ألا ترى معي أن أبا بكر (رضي الله عنه) كان يشير إلى نحو هذا التهيب حين قال: [**أيّ أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأي]**، وسئل عطاء عن شيء فقال: لا أدري؟ قال: قيل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال:إني أستحي من الله عزّ وجلّ أن يدان في الأرض برأي(16).

ومواقف كهذه، وإن كان القصد منها – **كما جاء في الباب** – هو عدم التجرؤ على القول في القرآن بغير علم، فقد رآها بعض الناس – ممن تأخر – تنكبا عن التأويل وتجريحا وقدحا فيمن يفعل ذلك، وهو ما جعل بعض المتأخرين يفرقون بين ما هو محمود ممدوح جائز، وبين ما هو مذموم من التأويل غير مقبول. وفي ذلك يقول الذهبي: ((التعارض بين التفسير العقلي والتفسير المأثور معناه التقابل والتنافي بينهما، وذلك بأن يدلّ أحدهما على إثبات أمر مثلا، والآخر يدلّ على نفيه، بحيث لا يمكن اجتماعهما بحال من الأحوال، فكأن كلا منهما وقف في عرض الطريق فمنعه الآخر من السير فيه.



وأما إذا وجدت المغايرة بينهما بدون منافاة، وأمكن الجمع ، فلا يسمى ذلك تعارضا، وذلك كتفسيرهم ((**الصراط المستقيم**)) بالقرآن وبالإسلام، وبطريق العبودية، وبطاعة الله ورسوله، فهذه المعاني وإن تغايرت غير متنافية ولا متناقضة، لأنّ طريق الإسلام هو طريق القرآن وهو طريق العبودية وهو طاعة الله ورسوله.... هذا وإنّ الصور العقلية التي يحصل فيها التعارض بين التفسير العقلي والتفسير النقلي هي ما يأتي:

أولا: أن يكون العقلي قطعيا والنقلي قطعي كذلك.

ثانيا: أن يكون أحدهما قطعيا والآخر ظنيا.

ثالثا: أن يكون أحدهما ظنيا والآخر ظنيا كذلك.

أمّا الصورة الأولى : ففرضية؛ لأنه لا يعقل تعرض بين قطعي وقطعي، ومن المحال أن يتناقض الشرع مع العقل.

وأمّا الصورة الثانية: فالقطعي منها مقدم على الظني إذا تعذر الجمع، ولم يمكن التوفيق؛ أخذا بالأرجح، وعملا بالأقوى.

وأمّا الصورة الثالثة: فإن أمكن الجمع بين العقلي والنقلي، وجب حمل النظم الكريم عليهما، وإن تعذر الجمع قدم التفسير المأثور عن النبي ﷺ، إن ثبت من طريق صحيح، وكذا يقدم ما صح عن الصحابة؛ لأن ما يصح نسبته إلى الصحابة في التفسير النفس أميل؛ لاحتمال سماعه من الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما امتازوا به من الفهم الصحيح والعمل الصالح، ولما اختصوا به من مشاهدة التنزيل)) (17).

بين التفسير والتأويل- أي علاقة؟

إنّ مصطلح التفسير وإن بدا مستقلا عن مصطلح التأويل، فإنه في الواقع يدخل في ثنائية توافقية أحيانا، وتقابلية أحيانا أخرى، مع مصطلح التأويل، وهو ما سنبينه في هذه العلاقة الحاصلة بينهما بحكم أن كلاهما خادمٌ للنص القرآني:

أولا: إذا قلنا: إنّ التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه، فالتأويل والتفسير على هذا متقاربان أو مترادفان، ومنه دعوة الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: ((**اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل**)) [18].

ثانيا: وإذا قلنا: إنّ التأويل هو نفس المراد بالكلام، فتأويل الطلب نفس الفعل المطلوب، وتأويل الخبر نفس الشيء المخبر به، فعلى هذا يكون الفرق كبيرا بين التفسير والتأويل؛ لأنّ التفسير شرح وإيضاح للكلام، ويكون وجوده في الذهن بتعقله، وفي اللسان بالعبارة الدالة عليه، أما التأويل فهو نفس الأمور الموجودة في الخارج، فإذا قيل إنّ الشمس طلعت: فتأويل هذا هو نفس طلوعها. وهذا هو الغالب في لغة القرآن كما تقدم، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [يونس: 39/38.

ثالثا: وقيل: التفسير ما وقع مبينا في كتاب الله أو معيّنا في السنة، لأنّ معناه قد ظهر ووضح، والتأويل ما استنبطه العلماء، ولذا قال بعضهم: ((التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية)) [19].

رابعا: وقيل: التفسير أكثر ما يستعمل في الألفاظ ومفرداته، والتأويل أكثر ما يستعمل في المعاني والجمل، وقيل غير ذلك[20].

والملاحظ في مجمل العلاقة بين التفسير والتأويل؛ أنها تتجلى في الاتفاق في المقصد والغاية، وإن اختلفتا في الاعتبار والاستعمال؛ فالتفسير أعم وأشمل، إن لم نقل أهم من التأويل، لأنّ التفسير أكثر استعماله في الألفاظ، وأكثر استعمال التأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا[21].

هذا التفريق نلحظه كذلك عند الشافعي؛ فإنه قسّم العلوم إلى علمين علم عامة، وعلم خاصة بالتفسير والتأويل، فقال: ((علم العامة وهو علمٌ لا يمكن فيه الغلط من الخبر ولا

التأويل ولا يجوز فيه التنازع، وعلم الخاصة ما كان منه يحتمل التأويل، ويستدرك قياسا)) [22].

ولكن الشيخ الطاهر ابن عاشور(ت 1973م) يرى خلاف ذلك؛ وأن هذه الأقوال لا عبرة بها، فهي مجرد اختلافات لفظية، وهي كلها اصطلاحات لا مشاحاة فيها، لأنّ التأويل مصدر أوله إذا أرجعه إلى الغاية المقصودة، والغاية المقصودة من اللفظ معناه، وما أراده منه المتكلم به من المعاني، فساوى التفسير على أنه لا يطلق إلا على ما فيه تفصيل معنى خفي معقول، وهو ما يؤكد بقوله:"هل ينظرون إلا تأويله" أي ينتظرون إلا بيانه الذي هو المراد منه)) [23].

آيات الصفات الواردة في القرآن بين التفسير والتأويل:

- تفسير السلف لآيات الصفات الواردة في القرآن:

((**السلف**))**كلمة تطلق ويراد منها**: من تقدمك في السن، من آبائك وأهل قرابتك ممن هم فوقك في السنّ والفضل، ولذا سمى أهل الصدر الأول من الصحابة والتابعين وتابعيهم بالسلف الصالح [24].

ومن هذا المعنى يستفاد أنّ كلمة ((**السلف**)) تطلق، ويراد بها أصحاب القرون الثلاثة الأولى المفضلة الذين جاء ذكرهم في الحديث: ((خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)) [25]. والحديث صحيح، والصحيح دليلٌ، والدليل حجة لا يسوغ لأحد إنكارها، ونصّ في المسألة لا يقبل التأويل، ومعروف تاريخيا أن ما جاء بعد هذه القرون الثلاثة المفضلة المشهود لها بالخيرية اصطلح عليه باسم ((**الخلف**)) تميزا لهم عن ((السلف))، وأعتقد جازما غير متردد أنّ محاولة بعض المعاصرين تسمية أنفسهم ((**بالسلفية**)) لسنن تمسكوا بها من غير فهم، تزكية لأنفسهم من غير مزكى، وجناية على النص في حد ذاته، وعلى التاريخ، وعلى الفقه الإسلامي، وعلى العقيدة، وعلى الثقافة عموما.

وكم من عائب قولا ***** وآفته من الفهم السقيم

- وأما الآية من قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: 56]. أي قوما سابقين لمن جاء بعدهم، قال الدامغاني: أي عظة وعبرة لمن يأتي بعدهم[26].

قال الدكتور الطاهر عامر بعدما ذكر أقوال علماء اللغة في كلمة((سلف)): ويكون المعنى الذي نختاره والتعريف الذي نأخذ به، هو أنّ السلف في اللغة ما تقدم وسبق من أقوام وأمم في الأزمنة الغابرة، ومن تقدمونا في الموت من الآباء وذوي القرابة، لأنه المعنى الذي دلت عليه الاستعمالات اللغوية، والقواميس المعتمدة، وأيدته النصوص القرآنية التي تضمنت الآية اللفظة ذاتها، وما عدا هذا من المعاني فهو تابع ولا يخرج عن مدلول المفردة الأساسي)) [27].

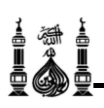
-وأما ((**عقيدة السلف**)) فهي المطلوب من جميع الأمة سلفها وخلفها، وهي عقيدة تقوم على أساس الكتاب والسنة، مع التسليم الكامل والانقياد التامّ لكل ما وصف الله تعالى به نفسه، ونفي ما نفاه تعالى عن نفسه، وما نفاه عنه نبيه ﷺ وعليه؛ فإثبات جميع الصفات الواردة في القرآن الكريم من غير تكييف ولا تمثيل، كذا إثباتها من غير تحريف ولا تعطيل، هي الاعتقاد الأسلم، وغرضهم من ذلك: [28].

1- تنزيه المولى عزّ وجل عن مشابهة المخلوقات في جميع صفاته وأفعاله.

2– إثبات جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة.

3– قطع الطمع من إدراك أي معنى وكيفية لصفاته تعالى.

وحاصل مذهب السلف في الآيات الخبرية هو: ما ذكره الرازي (**ت606**هـ) في كتابه: ((أساس التقديس)) حين قال: ((وحاصل هذا المذهب أنّ هذه المتشابهات يجب القطع فيها بأنّ مراد الله تعالى منها شيء غير ظاهرها، ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى، ولا يجوز الخوض في تفسيرها، تمسكا بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[29]. وما



أورده ابن كثير أيضا: فإنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:54]. قال: ((للناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح؛ مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفيّ عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾، بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال: من شبّه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر أيضا، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله النقائص فقد سلك سبيل الهدى)) [30].

وإلى مثل هذا أشار البغوي(**ت510هـ**) حين قال: ((فهذه ونظائرها صفات الله تعالى ورد بها السمع يجب الإيمان بها، وإمرارها على ظاهرها معرضا فيها عن التأويل مجتنبا عن التشبيه، معتقدا أنّ الباري سبحانه وتعالى لا يشبهه شيء من صفاته صفات الخلق... ، إلى أن قال: وعلى هذا مضى سلف الأمة، وعلماء السنة، تلقوها جميعا بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل، ووكلوا العلم فيها إلى الله عزّ وجلّ)) [31].

فهذا الموقف الذي وقفه السلف من آيات الصفات هو الذي أطلق عليه الأشاعرة فيما بعد باسم التفويض؛ فكأنهم فوّضوا الأمر لله في هذه الآيات من حيث مدلولاتها ومرادها.

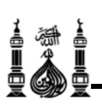
قال الموصلي: ((والتفويض بعلم كيفيات الصفات إلى الله تعالى، لأنّ هذا من العلم الذي استأثر الله تعالى به، لا يعلمه أحدٌ من خلقه، ولا ينبغي لأحد أن يبحث في كيفية الصفات، والواجب على الجميع أن يقطعوا الطمع في إدراك كيفية الصفات كما قطعوا في إدراك كيفية الذات))[32].

آيات صفات الله عزّ وجل في القرآن الكريم:

أولا: آيـة الاستواء على العرش: **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾طه05

وهذا النوع من التفويض يتجلى في أقوال أئمة السلف؛ أمثال الإمام مالك(**رحمه الله**) حينما سئل عن ا لاستواء، فقال قولته المشهورة: ((**الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة**)). فبين الإمام مالك (**رحمه الله**) أنّ معنى الاستواء ظاهرٌ وثابت ومعلوم، ولكن كيفية ذلك الاستواء غير معلوم لنا ولا نعقله، والواجب علينا أن نفوض إلى الله كيفية ذلك الاستواء [33].

وعن سفيان بن عيينة (**رحمه الله**) قال: سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن(**ربيعة الرأي**) شيخ الإمام مالك عن قول الله تعالى :﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾. كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق.[34] **وقال ابن تيمية** : ((لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾[طه:5]، ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾ [فاطر:10]، واقرأ في النفي: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ [الشورى:11]، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴾ [طه:110]. ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي))[35].



وكذلك يقولون في جميع الصفات الواردة في القرآن والسنة، وكلمتهم فيها واحدة من أولهم إلى آخرهم، ولم يؤولوها تعطيلا، ولم يحرفوها تبديلا، ولم يثبتوها تمثيلا، بل أثبتوا بلا تمثيل، ونزهوا بلا تعطيل(36).

وقد نقل إجماعهم هذا؛ الحافظ ابن عبد البر في كتابه التمهيد، حيث قال: ((وهذا هو المذهب الصحيح، والطريق القويم الحكيم، وذلك من وجهين:

الأول: أنه تطبيق تام لما دلّ عليه الكتاب والسنة من وجوب الأخذ بما جاء فيهما من أسماء الله وصفاته، كما يعلم ذلك من تتبعه بعلم وإنصاف.

الثاني: إنّ الحق إمّا أن يكون فيما قاله السلف أو فيما قاله غيرهم، والثاني باطلٌ لأنه يلزم منه أن يكون السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان تكلموا بالباطل تصريحا أو ظاهرا ولم يتكلموا مرة واحدة لا تصريحا ولا ظاهرا بالحق الذي يجب اعتقاده، وهذا يستلزم أن يكونوا إما جاهلين بالحق، وإما عالمين به لكن كتموه وكلاهما باطلٌ، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم، فتعين أن يكون الحق فيما قاله السلف دون غيرهم)) (36).

ثانيا- صفة الإتيان والمجيء والنزول : وهي من الصفات الخبرية الثابتة لله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [البقرة:210].

وقال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴾ [الفجر:22]. كما وردت هذه الصفات في السنة من ذلك؛ ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ الناس قالوا: يا رسول الله كيف نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا ر سول الله، قال: فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع

من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها ومنافقوها، شك إبراهيم ((فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقولون: أنت ربنا، فيقول: أنا ربكم فيتبعونه، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم...)) [37].

يقول الإمام ابن خزيمة مبينا مذهب السلف في هذه المسألة:((نشهد شهادة مقر بلسانه مصدق بقلبه مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نزول الربّ من غير أن نصف الكيفية، لأنّ نبينا المصطفى ﷺ لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا، وأعلمنا أنه ينزل، والله جلّ جلاله لم يترك ولا نبيه عليه السلام بيان ما للمسلمين إليه حاجة من أمر دينهم، فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول، وفي هذه الأخبار ما بان وثبت وصحّ أنّ الله جلّ وعلا فوق سماء الدنيا التي أخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم أنه ينزل إليه)) [38].

وهذا يفيد أنّ السلف أثبتوا لله تعالى ما أثبته لنفسه، وما أثبته له نبيه ﷺ؛ إذ وكما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: 4/3]، دون أي تصرف، وآمنوا بها دون ما تأويل، لا يليق بجلاله وكماله وجماله، فهو كما وصف به نفسه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى:11] ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾[الإخلاص:4/3] وقد استند السلف في تفسيرهم لآيات الصفات، ورفضهم للتأويل فيها على الأدلة التالية:

أدلة السلف في اختيارهم مذهب التفويض:

1– اعتمدوا على القرآن الكريم، وصحيح السنة كمصدرين لاستمداد اختياراتهم في العقيدة والفكر والأخلاق والسلوك، وعليهما قاسوا كل مذهب ورأي، فما وافقهما قبلوه، وما خالفهما رفضوه.

2– ورود منع التأويل بصريح النص القرآني، ووصف الذين يتبعون التأويل بالزيغ والضلال، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[آل عمران:07].

1 –التأويل مبنيّ على الظن؛ والظن يكفي فيه أنه ظنّ، فهو مبني على غير اليقين، ومن هنا تعددت الآراء حول الآية الواحدة، وتضاربت معانيها، مثل مسألة الاستواء على العرش، والمجيء يوم القيامة كما تقدم بيانه، وبذلك يجب التسليم بها كما وردت دون تأويل.

2 –إنّ التأويل في معظم الأحيان يعود إلى الهوى والتشهي، ومن هنا فليست هناك حدود يقف عندها المتأوّل للنص القرآني، أو معالم يرجع إليها فلا يضلّ الطريق، أو قانون يضبط حركة التأويل فيها، والنصوص التي تحتاج إلى تأويل، والنصوص التي لا تحتاج، وما إلى ذلك من الأمور والمستلزمات. وفي ذلك يقول ابن رشد(ت 595هـ): ((ولما تسلّط على التأويل في هذه الشريعة من لم تتميز له هذه المواضع، ولا تميز له الصنف من الناس الذين يجوز التأويل في حقهم، اضطرب الأمر فيها وحدث فيهم فرق متباينة يكفر بعضهم بعضا، وهذا كله جهلٌ بمقصد الشريعة وتعدّ عليها))[39].

3 –الخوف من نتائج التأويلات الفاسدة وما ينجرّ عنها من شرّ، قال ابن القيم(ت751هـ):

4 –((لو علموا– أصحاب التأويل الفاسد – أي باب من الشر فتحوا، للأمة بالتأويلات الفاسدة، وأيّ بناء للإسلام هدموا، وأيّ معاقل وحصون استباحوها لكان أحدهم أن يخرّ

من السماء أحب إليه من أن يتعاطى شيئا من ذلك، فكل صاحب باطل قد جعل ما تأوله المتأولون عذرا له فيما تأوله هو، وقال ما الذي حرم عليّ التأويل، وأباحه للآخرين،.... وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل؟ وهل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أوصغيرة إلا بالتأويل؟ فمن بابه دخل إليها؟)) (40).

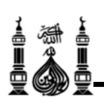
ملاحظة: إن المستندات التي استند عليها السلف في رفضهم للتأويل المجانب للحقيقة والقائم على التشهي والهوى، لا يعني أنهم رفضوا التأويل أساسا في النصوص التي تحتمل التأويل وتحتاج ألفاظها إلى إعمال العقل والتأمل والتدبير، بل الأمر على العكس من ذلك؛ وخير دليل على ذلك، ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني(ت 728هـ) في كتابه" درء تعارض العقل مع النقل" وفيه يقول:

((... فإن السلف لم يذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به رسوله.... وإنما ذموا الكلام الباطل المخالف للشرع والعقل، وعلى ذلك فإن الخطأ ليس في التأويل، ولكن الخطأ في مستخدمي التأويل، وخاصة التأويل الخاطئ)) (41).

تأويل الخلف لآيات الصفات:

أولا: الأشاعرة وشرعية التأويل : يرتبط التأويل – عند الخلف- بالنصوص الكلامية المتشابهة، التي علاقتها بآيات الصفات، والتي يوحي ظاهرها بمشابهة الذات الإلهية للحوادث والممكنات، التي من صفاتها أنّ لها صورة وجسما ، وهي مؤلفة من أجزاء وزمان ومكان.

وعلى هذا الأساس يعرف الأشاعرة التأويل بأنه: ((حمل اللفظ على خلاف ظاهره مع بيان المعنى المراد، فيحكم المكلف بأن اللفظ مصروف عن ظاهره قطعا، ثم يؤول اللفظ تأويلا تفصيليا بأن يبين فيه المعنى الذي يظن أنه المقصود من اللفظ))(42).



ومعنى كلامهم ذاك؛ أنه إذا كان تجاوز الحدّ في التنزيه يؤدي إلى التعطيل، فالبضّرورة تجاوز الحدّ في التشبيه يفضي إلى التجسيم، لذا فإنّ الوقوف عند ظواهر المفردات في النصوص التي تتحدث عن الصفات الخبرية دونما تأويل يفضي إلى تشبيه الله تعالى بخلقه ونسبة التجسيم إليه، ولتجنب الوقوع في تشبيه الذات الإلهية بالذات الإنسانية لا بدّ من حمل آيات الصفات على خلاف ظاهرها وتأويلها إلى معان تليق بجلاله انسجاما مع ما قطع به العقل، وثبت به التنزيل من أنّ الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11] ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:4/3].

دعاوى الأشاعرة في التأويل: ومما دعا الأشاعرة إلى التأويل اعتمادهم على جملة من المعطيات هي:

المعطى الأول- تقديم العقل على النقل عند التعارض:

اعتبر الرازي هذا الأساس بمثابة القانون الكلي للمذهب الأشعري في الصفات الخبرية عموما؛ حيث يقول: ((اعلم أنّ الدلائل القطعية العقلية إذا قامت على ثبوت شيء، ثم وجدنا أدلة نقلية يشعر ظاهرها باختلاف ذلك فهناك لا يخلوا الحال من أحد أربعة أمور هي:

- **إما أن يصدق مقتضى العقل والنقل فيلزم تصديق النقيضين وهو محال.**
- إما أن يبطل فيلزم تكذيب النقيضين وهو محال.
- إما أن يصدق الظواهر النقلية ويكذب الظواهر العقلية وذلك باطل، لأنه لا يمكن أن نعرف صحة الظواهر النقلية إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلية إثبات الصانع، وصفاته وكيفية دلالة المعجزة على صدق الرسول ﷺ، وظهور المعجزات على محمد ﷺ لو جوزنا القدح في الدلائل العقلية القطعية صار العقل متهما غير مقبول القول، ولو كان كذلك لخرج مقبول القول في هذه الأصول، وإذا لم تثبت هذه الأصول خرجت الدلائل العقلية عن كونها مفيدة، فثبت أن القدح في العقل لتصحيح النقل يفضي إلى القدح في العقل والنقل معا، وأنه باطل.

ولما بطلت الأقسام الأربعة، لم يبق إلا أن يقطع بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة، بأنّ هذه النقلية إما أن يقال أنها غير صحيحة، أو يقال أنها صحيحة إلا أنّ المراد منها ظواهرها)) (43).

هذا القانون الذي رسمه الرازي وجد له مكانا واسعا عند الأشاعرة قاطبة خاصة المتأخرين منهم أمثال: أبي حامد الغزالي(ت 505هـ)، والجويني(ت 478هـ)، وصار من المسلمات والقطعيات التي لا تحتمل النقاش، ولا تقبل الجدل، حتى جعلوه أصلا من أصول الاعتقاد عندهم.

المعطى الثاني– الظاهر يوهم التشبيه:

والمعنى؛ أنّ في آيات الصفات ظواهرٌ توهم التشبيه، وأن ظواهرها غير مراد الله تعالى من كلامه، بل المراد منها شيء آخر، وبناء على هذا ذهب الأشاعرة إلى تأويلها، ولذلك نجد ابن فورك(ت 406هـ) أوّل جميع آيات وأحاديث الصفات في كتابه: ((مشكل الحديث))، فتجده يذكر هذه العبارة ذكر خبر ما يقتضي التأويل ويوهم ظاهره التشبيه

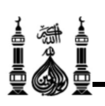
وكل نص أوهم التشبيها *** أوّله أو فوّض ورم تنزيها

قال البيجوري: ((والمراد بالنصّ ههنا ما قابل القياس والاستنباط والإجماع، وهو الدليل من الكتاب والسنة سواء كان صريحا أو ظاهرا)) (44).

وقال السنوسي: ((التمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير بصيرة في العقل هو أصل ضلالة الحشوية، فقالوا بالتشبيه والتجسيم والجهة)) (45).

المعطى الثالث– أحاديث الصفات ظنية الثبوت:

وهذا المعطى مفاده أنّ صفات الله تعالى الواردة في السنة أخبارها آحاد، وأخبار الآحاد عندهم لا تفيد اليقين، ولا تثبت بها العقيدة، لأنها ظنية الثبوت، قال الرازي: ((التمسك بخبر الواحد في معرفة الله تعالى وصفاته وأسمائه متروك لقوله تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ



﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِى مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴾ [النجم:28]. ومعنى هذا أنه يجب ترك العمل بالأحاديث الصحيحة التي تلقتها الأمة بالقبول والتي رواها البخاري ومسلم، لأنها من طريق آحاد، وهذا خلاف مذهب السلف القائم على العمل بالحديث الصحيح ولو كان خبر آحاد، لأنّ خبر الآحاد يفيد العلم، وما يفيد العلم يعمل به مطلقا في العقائد والأحكام على السواء، وقد وضح ذلك ابن تيمية في الفتاوى، حين قال: ((والاجتهاد في تحقيق المناط مما اتفق المسلمون عليه، ولا بد منه كحكم ذوي عدل بالمثل في جزاء الصيد، وكالاستدلال على الكعبة عند الاشتباه، ونحو ذلك، فلا يقطع به الإنسان...)) [46].

نماذج من المتشابهات في القرآن : قبل الخوض في هذه المسألة والتي بعدها أودّ أن أبين أنّ المبدأ العام الذي اعتمده الأشاعرة والمعتزلة في تأويل الآيات والأحاديث التي تثير إشكالا عقليا هو أنّ كلا الفريقين يرى أنّ المحكم هو الذي لا يحمل إلا معنى واحدا، وأنّ المتشابه هو الذي يحمل معاني كثيرة، ولذا وجب حمل هذا على ذاك.

أولا- إشكالية التشبيه والتجسيم في النص القرآني:

ورغم أن هذا المبدأ العام الذي يكاد يكون بمثابة القاعدة التي لا يحيدون عنها قيد أنملة، نجدهم يفترقون في التطبيق؛ إذ أنّ كل واحد من أصحاب هذه المذاهب يدعي أنّ الآيات الموافقة لمذهبه هي المحكمة، وأنّ الآيات الأخرى الموافقة لقول خصمه هي المتشابهة، فلا بد من تأويلها حسب ذلك، فالمعتزلي يرى في قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف:29] . هو المحكم، وأنّ قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان:30]. هو المتشابه، والسني يقلب الأمر في ذلك[47].

إنّ إشكالية التشبيه والتجسيم سببها الرئيس، هو ما وصف به الله تعالى نفسه من صفات، وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف به في مخاطبة الأجيال السابقة، فمن صفات

البشر ما يشاركها في الاسم أو الجنس كالقدرة والاختيار والسمع والبصر، وعزا أمورا يوجد مثلها في الإنسان كالاستواء على العرش، والجهة والوجه واليدين، وأمثال ذلك؛ بحيث إن كثيرا من آيات الصفات إن أخذت على ظاهرها أصبحت مثارا للتشبيه مثل أنّ لله وجها ويدين، وعينين وجهته في السماء، ومجلس يجلس عليه هو العرش، وأنه يجيء يوم القيامة مع ملائكته صفا صفا، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا كلّ ليلة في النصف الأخير من الليل، يقول: هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ إلى غير ذلك من النعوت والأوصاف.

الاتجاهات الباحثة في هذه الآيات:

لقد أثارت إشكالية التشبيه والتجسيم التي حملتها آيات الصفات كثيرا من الاختلافات، وولدت العديد من الاتجاهات بين الفرق الإسلامية نوجز أهمها في الآتي:

الاتجاه الأول: وهذا الاتجاه يمثله مقاتل بن سليمان(ت 150هـ) وأصحابه الذين يقولون: بأنّ الله جسم وأنّ له جمة كجمة الإنسان، من لحم ودم وشعر وعظم وله جوارح وأعضاء ويد ورأس وعينين، وهو مع هذا لا يشبه غيره، ولا يشبهه غيره)) (48). يقول مقاتل: ((لا يكون الرجل فقيها حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة)) (49). فعبارة ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام:1] على سبيل المثال لها وجهان؛ فوجه منها: الظلمات يعني الشرك، فذلك قوله في البقرة: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:257]. يعني يخرجهم من الشرك إلى الإيمان ، نظيرها عنده، وقال في الأحزاب: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴾ [الأحزاب:43] يعني جعل الليل والنهار ليس مثلهما في القرآن)) (50).



وحمل ابن خلدون مذهبهم على محاولة إثبات الجهة والاستواء، والنزول والصوت، والحرف، وآل قولهم إلى التجسيم)) [51].

ويبرر ابن خلدون موقفهم ذلك وسبب وقوعهم في التشبيه أنهم حاولوا أن يثبتوا الصفات الإلهية كما جاءت في القرآن الكريم حتى لا يكونوا من المعطلة، أما ما أوقعهم في التشبيه فهو رأيهم في الاستواء، حيث قالوا: ((الاستواء نثبته له بحسب مدلول اللفظ فرارا من تعطيله، ولا نقول بكيفيته فرارا من القول بالتشبيه، الذي تنفيه آيات السلوب، ولا يعلمون أنهم بذلك ولجوا في باب التشبيه في قولهم بإثبات الاستواء)) [52].

الاتجاه الثاني: ويمثله أهل السنة من السلف، وأهل السنة هم أصحاب الحديث كالإمام احمد(241هـ)، وداود بن علي الأصفهاني(ت 270هـ)، وجماعة من أئمة السلف جروا على منهج السلف المتقدمين عليهم من أصحاب الحديث كالإمام مالك(ت 179هـ)، والأوزاعي(ت157هـ)، وسفيان بن عيينة(ت 198هـ)، وربيعة بن أبي عبد الرحمن الرأي(ت142هـ) الذين قالوا في هذه الآيات: ((نؤمن بما ورد في الكتاب والسنة، ولا نتعرض للتأول بعد أن نعلم قطعا أنّ الله عز وجل لا يشبه شيئا من المخلوقات)) [53].

الاتجاه الثالث : ويمثله أهل السنة من الخلف، الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري(ت324هـ) وأتباعه؛ والذي سلك مسلكا وسطا بين المعتزلة وأهل الحديث. وصفه ابن خلدون في المقدمة فقال: ((إمام المتكلمين الذي توسط بين الطرق ونفي التشبيه، وإثبات الصفات المعنوية، وقصر التنزيه على ما قصره عليه أهل السلف)) [54].

وفي هذا يقول أبو الحسن الأشعري (ت324هـ): ((قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب ربنا عزّ وجل، وبسنة نبينا ﷺ وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله احمد بن محمد بن حنبل نضّر الله وجهه ورفع درجته، وأجزل مثوبته قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون، لأنه الإمام الفاضل....)) [55].

و لما سئل عن عقيدته قال: ((إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: نقول إنّ الله عزّ وجلّ يستوي على عرشه ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾. ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ۝١٠ ﴾ [فاطر: 10]. وقال: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ۝١٥٨ ﴾ [النساء: 157]. وقال: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ ﴾ [السجدة: 5].: ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۝٣٧ ﴾ [غافر: 37/36]. فكذّب فرعون نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام في قوله إنّ الله عزّ وجلّ فوق السموات، وقال عزّ وجلّ : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ [الملك: 16]. فالسموات فوق العرش، فلما كان العرش فوق السموات قال: ﴿ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك: 17]. لأنه مستو على العرش الذي فوق السموات، وكلّ ما علا فهو سماء، فالعرش أعلى السموات، وليس إذا قال: ﴿ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ - يعني جميع السموات، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السموات، ألا تر أنّالله عزّ وجل ذكر السموات،فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴾ [نوح: 16] . ولم يرد أنّ القمر يملأهنّ جميعا، وأنه فيهنّ جميعا، ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء، لأنّ الله عزّ وجلّ مستو على العرش، الذي هو فوق السموات، فلولا أنّ الله عز وجلّ على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش، كما لا يحطوها إذا دعوا إلى الأرض)) [56].

وإذا كان أبو الحسن الأشعري قد وقف من آيات الصفات هذا الموقف السلفي الذي يوحي بالتفويض، فإنّ المتأخرين من الأشاعرة كالغزالي(505هـ)،والجويني(478هـ)، والرازي(ت311هـ)، والبغدادي(ت429هـ) لم يكونوا معه على نفس الموقف[57].

بعض نماذج التأويل عند متأخري الأشاعرة:

أولا- آية الاستواء: معلومٌ أنّ صفة الاستواء من الصفات الخبرية الثابتة لله تعالى، وهي من أعظم الصفات التي تبين علوّ الله تعالى على خلقه واستوائه على عرشه، ولقد جاء إثبات هذه الصفة على وجوه متعددة؛ فمنها قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه: 05]. ومنها قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:54]. ومنها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:04].

ولئن كان متقدمو الأشاعرة قد ذهبوا في آيات الصفات مذهب السلف- كما رأينا- فإنّ المتأخرين منهم حادوا عن ذلك، وذهبوا مذهبا وسطا بين المعطلة والمشبهة، بحيث أثبتوا الصفة كما جاءت في القرآن، لكي لا يكونوا كالمعطلة، وأوّلوها حتى لا يكونوا كالمشبهة؛ فقالوا: (العلو الوارد في الآية مقصودٌ به القهر والتدبير وارتفاع الدرجة)) [58].

وقال الرازي بعدما أورد الآيات التي تتكلم عن العلو فقال: ((العلو في هذه المواضيع بمعنى العلو بالقدرة لا بمعنى العلو بالجهة)) [59].

ثانيا،- آية الإتيان والمجيء : وهي قوله تعالى : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾

[البقرة:210]. وهذه الآية ومثلها ما جاء في سورة الفجر : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴾ [الفجر:22]. والحديث المشهور الذي وردت فيه صفة النزول والذي تقدم تخريجه(60).

أثبته السلف من غير ما تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه، وكذلك كان أبو الحسن الأشعري (رحمه الله)، وأما المتأخرون من الأشاعرة فقالوا: ((إن المراد بـ " إلا أن يأتيهم الله " إلا أن تأتيهم آيات الله، فجعل مجيء آيات المجيء له، على التفخيم لشأن الآيات كما يقال: جاء الملك إذا جاء جيش عظيم من جهته، أو يكون المراد: هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمر الله، لأنّ الله منزه عن المجيء والذهاب، و لأن كلّ ما يصح عليه المجيء والذهاب فإنه لا ينفك عن المحدث، فهو محدث والله يستحيل أن يكون كذلك)) (61).

ويقول ابن فورك في تأويل صفة نزول الله تعالى: ((أما أن يراد به إقباله على أهل الأرض بالرحمة والاستعطاف بالتذكير والتنبيه الذي يلقي في قلوب أهل الخير منهم من أسعده بتوفيقه لطاعته)) (62).

ثالثا- آية: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [النور: 35]. وهذه الآية ذكر فيها الأشاعرة ومنهم الرازي أنه لا يصح القول بأن الله تعالى هو هذا النور المحسوس بالبصر، ودليلهم:

-أنّ الله لم يقل إنه نور، بل قال: إنه نور السموات والأرض، ولو كان الله نورا في ذاته، لم تكن لهذه الإضاءة أية فائدة.

- لو كان الله تعالى نور السموات والأرض أي أنه الضوء المحسوس، لترتب على ذلك أن لا يكون في شيء من السموات والأرض ظلمة البتة، لأن الله يتصف بالدوام ولا يسري عليه الزوال.

-لما كانت الأجسام كلها متماثلة، ثم أن تساويها في الماهية تراها مختلفة من حيث النور والظلمة، ويجب حينئذ أن يكون الضوء نفسه عرض قائم بالأجسام والعرض كما هو معلوم يمتنع أن يكون إلها، عندئذ ثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل النور المحسوس بالبصر بل معناه: أنه هادي أهل السموات والأرض ومنورهما على الوجه الأحسن، والتدبير الأكمل، مثلما يقال: فلانٌ نوّر هذه البلدة إذا كان سببا لصلاحها))(63).

الخاتمة:

وبعد هذا الاستعراض في العرض و التحليل ينبغي أن نخرج ببيان المسلك الذي يجب على المسلم إتباعه حتى يسلم في دينه، فلا يتجاسر على ما هو أكبر من وسع علمه، وطاقة فهمه، ويتمسك في ذات الوقت بالنص الذي أمر بالتمسك به حتى لا يضل الطريق، وفي ذلك يقول الحافظ ابن دقيق العيد(ت 702هـ): ((نقول في الصفات المشكلة إنها حق وصدق على المعنى الذي أراده الله، ومن تأولها نظرنا، فإن كان تأويله قريبا على مقتضى لسان العرب، لم ننكر عليه، وإن كان بعيدا توقفنا، ورجعنا إلى التصديق مع التنزيه))(64).

ونحن نجمل قول هذا المقال في هذه النتائج:

– أنّ كلا من السلف والخلف لم ينكروا مبدأ التأويل؛ وإنما السلف قالوا به إجمالا والخلف فصلوا، ومردّ ذلك إلى أنّ السلف لم يحوجهم المقام إلى التفصيل، وأحوج غيرهم من الخلف، ومثال ذلك قول الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ **[الأعراف:54].**

– **قال**: ((للناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مسلك السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري وغيرهم من أئمة المسلمين، قديما وحديثا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله تعالى، فإن الله لا شبهه شيء ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11]..

– أنّ الأشاعرة استطاعوا التدرج بمفكري هـ ذه العقائد من مستوى النظرة الضيقة للنصوص العقدية، أو القراءة الحرفية لتلك النصوص التي تنتهي حتما إلى تكريس عقيدة التجسيم المرفوضة إسلاميا، إلى مستوى عال من التفكير العقلاني الذي يحقق التنزيه في صورة تفصيلية متعالية.

– هذا، واشتهر على الألسنة: أنّ طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم و أحكم، وتوجيه ذلك أن طريقة السلف تشتمل على التسليم من تعين معنى لا نستطيع القطع بأنه هو مراد الله تعالى منه، وطريقة الخلف تشتمل على مزيد الإيضاح والتبيين، والرد على الخصوم المعاندين. إ. هـ .

الهوامش

(1)- نفس المصدر، ص(6).

(2) – ابن منظور: لسان العرب، ج(5)، ص(55)، ط(1410هـ/1999م)، دار صادر، بيروت.

(3) – الجرجاني: التعريفات، ص(91)، ط(1987م)، عالم الكتب، بيروت.

(4) – الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص(571)، ط(1986م)،دار قهرمان، اسطنبول.

(5) – أبو حيان: البحر المحيط، ج(1)، ص(13)، ط(1420هـ/1999م)، دار صادر، بيروت.

(6) – البرهان(104/1).

(7)- الحديث مرفوع، رواه البخاري في الصحيح، رقم(817)، كتاب الآذان، باب: التسبيح والدعاء. ومعنى(يتأول القرآن) أي: يفعل ما أمر به.

(8)- مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص(236)، ط3(1421هـ/2000م)، مكتبة المعارف، الرياض.

(9)- تاج العروس من جواهر القاموس، ج(7)، ص(215)، دار الهداية.

(10)- منهم: ابن قتيبة، والسدي، والزجاج، وغيرهم.

(11) - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج(1)،ص(490)، ط5(1416هـ/1996م)، مكتبة الأمين، بيروت.

(12)- المرجع السابق، ج(2)، ص(210).

(13)- نفس المرجع، ص(460).

(14) - تفسير ابن كثير(145/2).

(15) جولد تسيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، ص(106/105)، ترجمة: عبد الحليم النجار، دار إقرأ، ط5(1413هـ/1992م).

(16)- سنن الدارمي، رقم(108)، المقدمة، باب: التورع عن الجواب،ج(1)، ص(234).

(17) - الذهبي: التفسير والمفسرون، ج(1)، ص(284)، دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى(القاهرة).

(18)- تقدم تخريجه.

(19)- الإتقان(173/2).

(20)- مباحث في علوم القرآن، ص(338).

(21) - الإتقان(149/2).

(22)- محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، ص(357)، تح: أحمد شاكر، دار الكتب العلمية.

(23)- الطاهر ابن عاشور في: التحرير والتنوير،ج(1)، ص(73)، طباعة دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

(24)- لسان العرب(158/9).

(25)- صحيح البخاري، رقم(2652)، كتاب الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، ج(3)، ص(171).

(26)- انظر الدكتور الطاهر عامر في: التأويل عند السلف، ص(24)، دار ابن حزم، ط1(1432هـ/2011م).

(27)- المرجع السابق(26).

(28) أبو بكر خليل الموصلي: شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه في العقيدة ص(62)، والإبانة،ص(22).

(92) – الرازي: أساس التقديس، ص(134/133)، تح: أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية،القاهرة.

(30)– تفسير ابن كثير، (211/2).

(31) البغوي: شرح السنة، ج(1)، ص(170)، ط1(1400هـ)،

(32)– شعبة العقيدة، ص(70).

(33) – نفس المرجع.

(34) – نفس المرجع.

(35) – مجموعة الفتاوي(10/5).

(36)– شعبة العقيدة، ص(70).

(37)– ابن عبد البر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد، ج(7)، ص(145)، ط(1377هـ/1957م)، وزارة الأوقاف المغربية.

(38) – البخاري: رقم (7437)، ص(1477)، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ والحديث طويل جدا، اقتصرنا فيه على محلّ الشاهد((فيأتيهم الله)) لإثبات صفة المجيء يوم القيامة.

(39) – أبي بكر ابن خزيمة: التوحيد وإثبات صفات الرب، ص(125)، تح: عبد العزيز الشهوان، ط1(1408هـ)،دار الرشد،الرياض.

(40) – ابن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ص(128)، ط(1423هـ/2002م)، دار الكتب العلمية، بيروت.

(41) – ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج(1)، ص(250).

(42)– ابن تيمية: درء تعارض العقل مع النقل، ج(5)،ص(45)، تح: محمد رشاد سالم، ط(1411هـ).

(43)– أساس التقديس، ص(125).

(44)– نفس المرجع.

(45)– البيجوري: تحفة المريد على جوهرة التوحيد، تح: على جمعة، ط 1(1422هـ/2002م)،دار السلام.

(46)- السنوسي: شرح عقيدة التوحيد، ص(502)، ط(1354هـ/1935م).، الحلبي، مصر.

(47) - مجموعة الفتاوى(62/7).

(48) - انظر مثلا؛ الفخر الرازي في: التفسير الكبير(58/7)، و القاضي عبد الجبار في:(متشابه القران475/1)، وابن الوزير في: (إيثار الحق على الخلق89).

(49) - عبد القاهر بن محمد البغدادي الاسفرائيني: الفرق بين الفرق،ص(54)، ط(1434هـ/2013م)، المكتبة العصرية. بيروت

(50) - نصر حامد أبو زيد: الاتجاه العقلي في التفسير، ص(98)، ط 6(2007م)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

(51) - نفس المرجع.

(52) - عبد الرحمن بن خلدون في: المقدمة، ص(45)، دار الفكر، لبنان، ط(1998م).

(53)- نفس المصدر.

(54)- الشهرستاني في: الملل والنحل،(79/1)، دار الكتب العلمية.

(55)- المقدمة، ص(445).

(56)- أبي الحسن الأشعري: الإبانة عن أصول الديانة، ص(43)، تح: بشير محمد عون، دار البيان، ط3(1416هـ/1997م).

(57) - الإبانة، ص(97).

(58)- وموقفهم المخالفة؛ فقد لجأوا إلى تأويلها - زعما منهم- تحاشي التشبيه.

(59)- أساس التقديس، ص(82).

(60) - نفس المرجع.

(61)- انظر: ص(13) من هذا المقال.

(62)- أساس التقديس، ص(83).

(63)- أبي بكر بن الحسن بن فورك في: مشكل الحديث، تح: دانيال جيماريه، ص(79)، ط(2003)، .دمشق.

(64)- أساس التقديس، ص(80).

(65)- ابن حجر العسقلاني في: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج(13)، ص(466)، كتاب التوحيد: باب: ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله عز وجلّ.

قائمة المصادر والمراجع

1 -القران الكريم.

2 -أساس التقديس: لفخر الدين الرازي، تح أحمد حجازي السقا، الطبعة(1406هـ/1986م).

3 -الإبانة عن أصول الديانة: لأبي الحسن الأشعري، تح: بشير محمد عون، دار البيان، الطبعة الثالثة(1416هـ/1997م).

4 -الاتجاه العقلي في التفسير: لنصر حامد أبو زيد، الطبعة السادسة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

5 -الإتقان في علوم القرآن: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تح: هاني الحاج، ط(2012م)، دار التوفيقية للتراث، القاهرة.

6 -إعلام الموقعين عن رب العالمين: لابن قيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة.

7 -إيثار الحق على الخلق في ردّ الخلافات إلى مذهب الحق من أصول التوحيد: لمحمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى ابن المفضل الحسني القاسمي عز الدين اليماني الشهير بابن الوزير، اعتنى به: عبد الوارث محمد علي، الطبعة الأولى(1435هـ/2014م)، دار الكتب العلمية، بيروت.

8 -البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، الطبعة الثالثة(1400هـ/1980م)، دار الفكر، دمشق.

9 -البحر المحيط: لأبي حيان الندلسي،الطبعة(1420هـ/1999م)، دار صادر، بيروت.

10 -تاج العروس من جواهر القاموس: لأبي الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي، دار الهداية.

11 -التأويل عند المفسرين من السلف: للدكتور الطاهر عامر، دار ابن حزم، الطبعة الأولى(1432هـ/2011م)، بيروت.

12 -التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

13 التعريفات : لعلي بن محمد الجرجاني، تح: محمد باسل عيون السود، الطبعة الأولى(1421هـ/2000م)، دار الكتب العلمية.

14 تحفة المريد على جوهرة التوحيد: لإبراهيم البيجوري، الطبعة(1409م/1989م)، الإدارة المركزية للمعاهد الأزهرية.

15 تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي: للحافظ محمد بن عبد الرحمن ابن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.

16 تفسير القرآن العظيم: للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، الطبعة الخامسة(1416هـ/1997م)، مكتبة الأمين.

17 التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): لفخر الدين الرازي، الطبعة الأولى(1411هـ/1990م)،دار الكتب العلمية، بيروت.

18 التفسير والمفسرون: لمحمد حسين الذهبي، الطبعة الأولى(1381هـ/1961م)، القاهرة، مصر.

19 -التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد: لأبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي،الطبعة (1377هـ/1957م)، وزارة الأوقاف المغربية.

20 التوحيد: لمحمد بن إسحاق بن خزيمة، تخ: سمير بن أمين الزهري، دار المغني،الطبعة الأولى(1423هـ/2003م).

21 جامع البيان في تأويل القرآن: لمحمد بن جرير الطبري، تح: أحمد شاكر، الطبعة الأولى(1420هـ/2000م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

22 درء تعارض العقل و النقل: لأبي العباس أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي،تح: محمد رشاد سالم، الطبعة(1411هـ)، الرياض.

23 روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني: لشهاب الدين الآلوسي، الطبعة(1414هـ/1994م)، دار الفكر، بيروت، لبنان.

24 الرسالة: للإمام الشافعي،تح: احمد محمد شاكر، المكتبة العلمية

25 فتح الباري شرح صحيح البخاري: للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الطبعة الأولى(1418هـ/1997م)،دار السلام(الرياض)، دار الفيحاء(دمشق).

26 الفرق بين الفرق: لعبد القاهر البغدادي الإسفرائيني، المكتبة العصرية، الطبعة(1434هـ/2013م).

27 القاموس المحيط: للفيروز آبادي،ترتيب: أحمد الطاهر الزاوي، ط3(1980م)، الدار العربية، ليبيا.

28 سنن الدارمي.

29 شرح عقيدة التوحيد: للسنوسي، الطبعة الأولى(1354هـ/1935م).، الحلبي، مصر.

30 صحيح البخاري: لأبي عبد الله إسماعيل البخاري،

31 كتاب الأسماء والصفات: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تعليق: محمد زاهد الكوثري، الطبعة الأولى(1419هـ/1999م)، المكتبة الأزهرية.

32 لسان العرب: لابن منظور محمد بن مكرم، الطبعة الأولى(1997م)،دار صادر، بيروت.

33 مباحث في علوم القرآن: لمناع القطان، الطبعة الثالثة(1421هـ/2000م)، دار المعارف ، الرياض.

34 مجموعة الفتاوى: لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، اعتنى بها وخرّج أحاديثها عامر الجزار، وأنور الباز، دار الوفاء، الطبعة الأولى(1418هـ/1997م).

35 مذاهب التفسير الإسلامي: لجولد تسيهر، ترجمة: عبد الحليم النجار، دار إقرأ، الطبعة الخامسة(1413هـ/1992م).

36 مشكل الحديث: لأبي بكر بن حسن بن فورك، تح: دانيال جيماريه، الطبعة(2003)،دمشق.

37 الملل والنحل: للشهرستاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت.

38 المقدمة: لابن خلدون، دار الفكر، الطبعة(1998م).

39 مذاهب التفسير الإسلامي: لجولد تسيهر، ترجمة: عبد الحليم النجار، دار إقرأ، الطبعة الخامسة(1413هـ/1992م).

40 مشكل الحديث: لأبي بكر بن حسن بن فورك، تح: دانيال جيماريه، الطبعة(2003)،دمشق.

41 الملل والنحل: للشهرستاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت.

42 المقدمة: لابن خلدون، دار الفكر، الطبعة(1998م).

43 مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية- جامعة الجزائر1 - بن يوسف بن خدة، العدد الرابع، السنة(1433هـ/2012م).

44 مجلة التنوير، المعهد العالي لأصول الدين، جامعة الزيتونة، العدد الرابع عشر، السنة(2014/2015- 2015/2016م).

45 مشكل الحديث: لأبي بكر بن حسن بن فورك، تح: دانيال جيماريه، الطبعة(2003)،دمشق.

46 الملل والنحل: للشهرستاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت.

47 المقدمة: لابن خلدون، دار الفكر، الطبعة(1998م).

48 مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية- جامعة الجزائر1 - بن يوسف بن خدة، العدد الرابع، السنة(1433هـ/2012م).

49 مجلة التنوير، المعهد العالي لأصول الدين، جامعة الزيتونة، العدد الرابع عشر، السنة(2014/2015- 2015/2016م).